الزهد في الاسلام

يعتبر الزهد عند مؤرخي التصوف مرحلة سابقة عليه ، ويحسن بادي ذي بدء تحديد مفهومه : الاسلام مفهوم خاص للزهد ، فهو ليس رهبانية أو انقطاعا عن الدنيا ، وانما هو معنى يتحقق به الانسان ، يجعله صاحب نظرة خاصة للحياة الدنيا ، يعمل فيها ويكد ، ولكنه لا يجعل لها سلطانا على قلبه ، ولا يدعها تصرفه عن طاعة ربه .ولذلك ليس من شرط الزهد في الاسلام ان يكون مقترنا بالفقر، بل قد يتفق للانسان الغنى والزهد معا.

وقد عرف أحد الصوفية الزهد الاسلامى بقوله :أن تكون معرضا عما تملك لا أن تكون معرضا عما لا تملك ، فان من لا يملك شيئا فيم يكون زاهدا ؟ .ان الزهد في الاسلام معناه ارتفاع الانسان بنفسه فوق شهواتها ، وهذا معناه أن يتحرر تماما من كل ما يعوق حريته .وقيل لاحد الزهاد الاوائل، وهو ابراهيم بن أدهم، ان اللحم قد غلا سعره ، فقال :أرخصوه ؟ أى لا تشتروه ، وانشد :اذا غلا شيء عليّ تركته فيكون أرخص ما يكون اذا غلا.

وهذا الزهد مستمد من أدب القرآن ، وسنة النبي وصحابته ، ولم يكن الزهد عند النبي وصحابته ليعنى انصرافا تاما عن الدنيا ، وانما كان يعنى الاعتدال أو التوسط في الاخذ بأسبابها وملذاتها ، وهذا مشار اليه في قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وفى قوله » : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) وورد فى الاثر أيضا اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . وكان بين صحابة الرسول زهاد أقوياء على نفوسهم ، فلم يفتتنوا بمال أو جاه.كأبي ذر وسلمان وعثمان ابن مضعون.

الزهد في الاسلام اذن منهج في الحياة ، قوامه التقلل من ملذات الحياة ، والانصراف الى الجاد من أمورها ، فتتحقق بذلك حرية الانسان المتمثلة في ارتفاعه فوق شهواته وأهوائه بمحض ارادته مع قدرته نفس الوقت على تحقيق تلك الشهوات ، والسير وراء هذه الاهواء ، ولكن يمنعه من ذلك ايمان قوى بالله وبثوابه وعقابه في الآخرة.

عوامل نشأة الزهد في الاسلام :

اختلفت آراء الباحثين من المستشرقين وغيرهم فى العوامل التي أدت الى ظهور حركة الزهد فى الاسلام ابان القرنين الاول والثاني الهجريين فيرى نيكولسون مثلا أن الزهد اسلامى النشأة ، ولكنه متأثر إلى حد قليل بالمسيحية ، فيقول :ولكننا مع اعترافنا بأن المسيحية كان لها أثر في تشكيل التصوف في صورته الاولى ، لا نرى أن فى أقوال متصوفة الزهاد من أمثال ابراهيم بن أدهم)المتوفى سنة ١٦١ هـ (وداود الطائي)المتوفى سنة ١٦٥ هـ (والفضيل ابن عياض)المتوفى سنة ١٦٧هـ (وشقيق البلخى)المتوفى سنة ١٩٤ هـ (ما يدل على أنهم تأثروا بالمسيحية ، أو بأى مصدر أجنبي آخر، الا قليلا . ويرى الدكتور أبو العلا عفيفي (أن عوامل نشأة الزهد فى الاسلام أربعة ، وهي عنده على النحو التالي باختصار،

العامل الأول :تعاليم الاسلام نفسه، فان القرآن يحث على الورع والتقوى وهجر الدنيا وزخرفها ،

ويحقر من شأن هذه الدنيا ، ويعظم من شأن الآخرة ، ويدعو الى العبادة والتبتل وقيام الليل والتهجد والصوم ، ونحو ذلك مما هو صميم الزهد .والقرآن يصور الجنة والنار بصورة دفعت كثيرا من المسلمين الى التفانى فى العبادة طلبا للنجاة .وألقت الرعب في قلوب آخرين خوفا من الوقوع في النار، فقضوا الليالى فى التوبة والاستغفار .

العامل الثاني ثورة المسلمين الروحية ضد نظام اجتماعى وسياسي قائم .

العامل الثالث :الرهبنة المسيحية ، وفى رأيه أن العرب تأثروا قبل الاسلام بالرهبان المسيحيين، واستمر تأثيرهم فى زهاد المسلمين بعد ظهور الاسلام ، وكان تأثير الرهبنة في الناحية التنظيمية أكثر منه في ناحية المبادىء العامة في الزهد ، تلك المبادئ التي ظلت إسلامية في الصميم .وكثيرا ما نقرأ عن زيارات عباد المسلمين للرهبان في صوامعهم وأخذهم عنهم بعض تعاليمهم. من ذلك ما روى عن ابراهيم بن أدهم أنه قال » :تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان.

العامل الرابع :الثورة ضد الفقه والكلام ، ويرجع هذا العامل في رأيه الى ظروف اسلامية بحتة ، شأنه في ذلك شأن العاملين الاول والثاني ، وذلك أن أتقياء المسلمين لم يجدوا في فهم الفقهاء والمتكلمين للاسلام ما يشبع عاطفتهم الدينية ، فلجأوا الى التصوف)كذا (لاشباع هذه العاطفة ولعله قد تبين لك من الآراء السابقة اتفاق على أن الزهد من مصدر اسلامي أولا ، ولكن الخلاف بين رأى منها وآخر هو في مدى تأثير المسيحية على نشأة هذا الزهد ، فبينما يميل نيكولسون والدكتور عفيفي الى التقليل من أهميته فى تلك النشأة نجد جولدزيهر يؤكد أن له دورا كبيرا فيها ويضيف الدكتور عفيفى عاملين آخرين فى نشأة الزهد مما ثورة المسلمين على النظام السياسي والاجتماعي ، وثورتهم على الفقه والكلام)وقد أشار نيكولسون أيضا إلى العامل الثانى منهما فى بعض بحوثه. ونحن نوافق الدكتور عفيفى على العاملين الأولين فى نشأة الزهد ، ومما تعاليم الاسلام ، وثورة المسلمين على النظام السياسي والاجتماعي (في العصرين الأموى والعباسي) ولكننا نرى أن الرهبنة المسيحية لم تكن عاملا من عوامل نشأة الزهد الاسلامي ، وكذلك فان ثورة المسلمين ضد الفقه والكلام لم تكن لها صلة بنشأة الزهد، وان كان لها أوثق الصلة بنشأة التصوف منذ القرن الثالث الهجرى وما بعده .وفيما يلى نحاول بيان العاملين الرئيسيين فى نشأة الزهد فى رأينا ، وهما القرآن والسنة ، والاوضاع السياسية والاجتماعية في القرنين الأولين للهجرة.